المبحث الثانى

نشأة الحكيم وثقافته

ان الباحث فى حياة الحكيم الترمذى العامرة بالعلم، يدرك أن طفولة الحكيم لم تكن طفولة عادية، مليئة بلهو الأطفال، وعبثهم ولعبهم، إذ لايتصور أن يتعود ذلك ثم يفطم عنه دفعة واحدة، دون أن يحدث رد فعل عنيف، قد يتسبب فى نفوره من شيخه، ومن درسه، وهذا خلاف ما حدث، مما يدل على أن هذه الطفولة كان فيها نوع من التهيئة النفسية والذهنية لفترة الدرس الجاد فيما بعدها [١].

لقد فتح الحكيم عينيه على حلقات العلم والدرس منذ بدأ يعقل، لأن أباه كان أحد علماء الفقه ورواة الحديث، كما يبدو من حديثه عنه، وقد أخذ أبوه يغرس فيه حب العلم، وتحصيل المعارف، ويحمله على ذلك حملا فى وقت مبكر، حتى امتلأ وقته منذ الصبا الباكر بالإقبال على الدرس وتحصيل العلم، بفضل تشجيع والده، وحثه على الاستزادة منه، مدفوعًا بحرص الأب، ومسئولية المربى، حتى أصبح العكوف على الدرس أمراً مألوفًا للحكيم فى سنة الباكر الذى يقطعه أترابه فى اللهو واللعب [٢]..

وقد كان أبوه أستاذه الأول ـ ولعله استغنى بذلك عن التردد على الشيوخ فى صباه الأول ـ ويفهم مما كتبه الحكيم عن تعليمه فى هذه السن المبكرة أن أباه كان يدرس له علم الرأى والآثار، أو بعبارة أخرى علم الحديث والفقه، فقد كان أبوه محدثا، ويروى الحكيم عنه فى كتبه جميعها [٣].

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٤٤.

(٢) الدكتور الجيوشى مقدمة كتاب «المسائل المكنونة» للترمذى ص ٩.

(٣) المصدر السابق ص ٩.

وهذا كله يجمله الحكيم فى عبارة موجزة بقوله :«كان بدو شأنى أن الله تبارك اسمه قيض لى شيخى ـ رحمة الله عليه ـ من لدن بلغت من السن ثمانيًا، يحملنى على تعلم العلم، ويعلمنى ويحثنى عليه، ويدئب ذلك فى المنشط والمكره، حتى صار ذلك لى عادة وعوضا عن اللعب فى وقت صباى، فجمع لى فى حداثنى علم الآثار، وعلم الرأى» [١].

ولاشك أن شيخ الحكيم ـ سواء كان والده أم غيره ـ قد وفق أيما توفيق فى أن يجعل الحكيم على معرفة بعلمين من أهم العلوم الإسلامية، وهما علم الحديث، وعلم الفقه، ولا حاجة بنا لنكد الذهن، ونزداد فى التفكير لمعرفة هذا الشيخ الذى ذكره الحكيم بأنه كان شيخا له. طالما أن المصادر وكتب الطبقات والتراجم لم تبين لنا ذلك، ويكفى أن الله تبارك اسمه قيض له شيخاً.

ولا ندرى على وجه التحديد إلى أى مدى استمر هذا الشيخ يعلمه، ولا ندرى إذا كان هناك من الشيوخ الآخرين من تتلمذ عليه الحكيم فى صباه، وفى صدر شبابه غير شيخه الذى ذكره ـ سواء كان والده أم غيره ـ لأن المصادر التى بأيدينا قد سكتت عن الحديث عن هذه الفترة من حياة الحكيم الترمذى [٢].

وإن كان مما لاشك فيه أن هناك من شيوخ الترمذى وأساتذته من قام بتعليمه إلى جانب والده أو شيخه، فكان يتردد على شيوخ ترمذ الآخرين ويأخذ عنهم،كما يأخذ لداته ونظراؤه. إلا أنه لم يذكر لنا واحداً منهم. ولعل مرد ذلك إلى أنه كان يرى أن ماتلقاه على أيديهم لم يخرج فى نطاقه عما تلقاه على يد شيخه [٣].

والتاريخ لم يحدثنا متى توفى والده، وإن كان من المؤكد أنه قام بالنصيب الأكبر فى تثقيفه وتوجيهه فى الفترة الأولى من حياته، ويؤخذ من كثرة روايته عن أبيه فى

---

(١) الدكتور عثمان إسماعيل يحيى «بدو شأن أبى عبدالله» داخل كتاب «ختم الأولياء» ص ١٤، ف ١، ط بيروت.

(٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ١٦، ط دار النهضة العربية.

(٣) الدكتور الجيوشى مقدمة كتاب «منازل العباد من العبادة» ص ١٠.

كتبه، أن أباه لم يمت إلا بعد أن بلغ سن الشباب، وحصل كثيراً من مسائل العلم[١].. وليس صحيحًا أنه مات وهو صغير ـ كما يروى فريد الدين العطار فى تذكرة الأولياء [٢].

وقد كان لتوجيه والد الحكيم له منذ الصبا الباكر أثر بالغ فى تعلق الحكيم بالمعرفة وطلبها، والرغبة فى الاستزادة من العلم، والاستعداد للرحلة من أجل ذلك، كما كانت العادة جارية بذلك فى زمانه بالنسبة للطلاب الذين لم يعرفوا حدوداً تفصل بين بلد وآخر، والعلم لا وطن له، والرحلة فى طلبه أمر لابد منه للمجتمع، حتى يتسنى للعلماء اكتساب الفوائد، والكمال، ومباشرة التلقين، والمحاكاة من الفطاحل الأعلام.

وإذا نظرنا إلى العلماء المسلمين فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، نجد أنهم لم يثنوا عزمهم، ولم يدخروا جهدهم، فى سبيل القيام بهذا العمل الجليل.. فقد أولع أكثرهم بالرحلة من بلد إلى بلد، ابتغاء العلم وتحصيله، وحرصاً منهم على اقتناص شوارده، وتقصى مسائله، وتتبع أطواره، وأحواله، ومعرفة كل ما يتصل بأئمته ورجاله. فجابوا الأقطار، وقطعوا الصحارى والقفار، ولم تعى هممهم بتحمل وعثاء السفر، ومشقات الرحيل، ولم يقعد بهم عن المضى إلى غاياتهم شظف من العيش، وقلة من المال، مهما بعدت المسافات، وطال زمن الاغتراب.

وقد روى المؤرخون كثيراً من أنباء تلك الرحلات التى قام بها طلاب العلم والعلماء، فقلما نجد عالما منهم إلا له أكثر من هجرة، إلى أكثر من بلد فى أقطار مختلفة.

ورجال الحديث كانوا يرحلون إلى الأمصار المختلفة حتى يقيدوا الأحاديث بأسانيدها ورواياتها.. وهؤلاء المحدثون كانوا من أنشط الناس للهجرات، ومن

---

(١) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ١٦، ط دار النهضة العربية.

(٢) فريد الدين العطار «تذكرة الأولياء» جـ ٢، ص ٩٠ تحقيق نيكلسون نقلا من كتاب الرياضة وأدب النفس للمستشرق آربرى والدكتور على حسن عبد القادر ص ٧.

أقدرهم وأصبرهم على تحمل عناء الارتحال، ووعثاء السفر.. وكان لابد لهم من ذلك فى سبيل طلب الحديث وتدوينه، وتحقيق رواياته، والتأكد من صحته وإسناده، لأن رواته من الصحابة كانوا قد تفرقوا فى الأمصار بعد الفتح، وقد أخذ الحديث عن هؤلاء الصحابة ـ المنبثين فى البلاد ـ وطبقات التابعين ومن بعدهم، فكان على ألسنة المحدثين فى كل مصر وبلد أحاديث، قد لا يتأتى لمحدثى الأمصار الأخرى معرفتها، لأنهم لم يقفوا عليها، ولم يسمعوا بها..

ومما سجله الأستاذ أحمد أمين فى صحائف التقدير لهؤلاء العلماء قوله:«ترى العالم فى المشرق، فإذا هو فى الأندلس، وفيما هو فى الأندلس إذا هو فى العراق، وفيما هو فى العراق إذا هو بمصر والشام.. لا يعوقهم قفر، ولايفت فى عزمهم صعوبة الطريق وأخطاره، سواء عليهم الصحراء وحرها، والبحار وأمواجها. إذ تغلغل فى نفوسهم اعتقاد أن طلب العلم جهاد، فمن مات فى سبيله مات شهيدا. هذا إلى أن العلم عند كثير منهم أصبح مقصداً لا وسيلة، يقصد لذاته، ويرغب فيه للذته» (١).

وحسب المفكر والباحث أن ينظر عبر التاريخ، ويستطلع سير الأعلام من العلماء «ليدرك إلى أى مدى كان طلاب العلم يرون الرحلة لهذا الهدف النبيل أمراً لازمًا، وفرضًا لابد من القيام به» (٢).

لهذا اتفق الترمذى مع اثنين من أصدقاء العلم على القيام برحلة علمية يلقون خلالها شيوخ الحديث، وأهل المعرفة فى مختلف الأمصار، ويتلقون عنهم العلوم، ويأخذون عنهم.. غير أن هذه المرحلة لم تتم بالنسبة إلى الحكيم فقد طلبت إليه أمه أن يبقى بجانبها يرعاها، ويقوم على شئونها، لأنه ليس هناك من يقوم بهذا الواجب سواه.. ويبدو أن والده كان قد توفى، كما أن المصادر المطلعة لا تشير إلى وجود

---

(١) الأستاذ أحمد أمين «ظهر الإسلام» جـ ٢، ص ٤٠، ط بيروت.

(٢) الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» ص ١٠.

أخوة له.. ولعل ذلك كان السبب الأكبر فى تعلق أمه به، وحرصها على أن يكون معها فى وحدتها ومرضها..

وما كان الحكيم البار بأمه أن يتخلى عنها فى ذلك الوقت الذى تحتاج فيه إلى من يرعاها، وأن كانت الرحلة المرتجاة، تملأ كل أحاسيسه، والشوق الجارف إلى التزود، من المعرفة يشغل أيامه ولياليه، فانطلق صاحباه، وظل هو يبكى ضياع وقته، وإفلات الفرصة السانحة [١]..

وقد رسم الشاعر الفارسى فريد الدين العطار، صورة معبرة عن المشاعر المتضاربة التى اجتاحت كيان الحكيم، وتصارعت فى داخله، فيقول : «ذلك أنه كان قد عقد النية فى أول أمره على الرحلة لطلب العلم فى رفقة اثنين من اخوانه، وفى أثناء ذلك مرضت أمه، وقالت له : يابنى انى امرأة ضعيفة، لا عائل لى، ولا معين يعيننى، وإنك المتولى لأمرى، فإلى من تكلنى وتذهب؟ فنالت هذه الكلمات من نفسه، وعدل عن الرحلة، ومضى زميلاه فى سبيلهما. ثم مضى على ذلك بعض الوقت.. فبينما كان فى إحدى المقابر يبكى بكاءً شديداً، ويقول : «هاأنذا قد بقيت جاهلاً مهملاً، وسيرجع أصحابى،وقد حصلوا على العلم» إذ به يرى أمامه فجأة، شيخاً مشرق الوجه، فسأله الشيخ عن سر بكائه، فأفضى إليه بحاله .. فقال له الشيخ : ألا أعلمك فى كل يوم شيئاً من العلم، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك.. فأجابه إلى ذلك. واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم، ومضت على ذلك أعوام .. ثم عرف بعد ذلك أن الشيخ هو الخضر عليه السلام، وأنه إنما حصل على هذا ببركة دعاء أمه [٢]. وأضاف العطار إلى ذلك راوياً عن أبى بكر الوراق: «أن الخضر كان يأتيه ليعلمه كل يوم أحد، حيث كانا يتذاكران العلم، ويتجاذبان الحديث» [٣].

---

(١) الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» ص ١٠، ومقدمة «منازل العبادة» ص ١٠، وكتاب «الحكيم الترمذى» ص ١٧.

(٢) تذكرة الأولياء ط نيكلسون جـ ٢، ص ٩١ ـ ٩٢ نقلا من كتاب الحكيم الترمذى للدكتور الجيوشى ص ١٧، ١٨. ونقلا من كتاب الرياضة وأدب النفس ص ٨.

(٣) الدكتور آربرى وعلى حسن «كتاب الرياضة وأدب النفس»، ص ٨، وأبو بكر الوراق هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق الترمذى البلخى «القشيرى فى الرسالة» ص ٣٦ وأبا نعيم الأصفهانى فى «حلية الأولياء» جـ ١٠، ص ١٣٧.

ويقول الترمذى:«وهكذا علمنى درساً كل يوم حتى انقضت ثلاث سنوات» [١].

ويذكر الدكتور الجيوشى فى مقدمة تحقيقه لكتاب الترمذى «منازل العباد من العبادة أو منازل القاصدين إلى الله» : أنه وجد فى كتاب «الأدعية والطلسمات» المنسوب للترمذى : أن نوبات الحزن والبكاء كانت تهيج الترمذى كلما تذكر الفرصة التى ضاعت منه، ومخطوط الأدعية والطلسمات يصور نوبة من هذه النوبات التى كانت تنتاب الحكيم من حين لآخر. فقد جاء فيه :«فى يوم من أيام الجمع بينما كان الحكيم فى المسجد إذ تذكر الفرصة التى أفلتت منه بذهاب صاحبيه إلى العراق لطلب العلم، وعدم تمكنه من صحبتهما، بعد اتفاقهم على ذلك، وكان سبب تخلفه مرض أمه، وعدم إذنها له بالسفر، فلما تذكر الحكيم ذلك غلبه النحيب والبكاء، فاجتمع المصلون من حوله يسألونه عن السبب، وهو لايستطيع أن يجيب لشدة ما غلبه من البكاء، حتى ظن بعضهم أنه يبكى لفقدان أمه، وظن الآخرون أنه ألم به مرض شديد لا يستطيع تحمل آلامه.. وذهب آخرون أن به طائفًا من الجنون، جعله يبكى بدون سبب، ولم يجد الحكيم جوابًا، بل أخذ طريقه إلى خارج المسجد متجهًا إلى المقابر بالقرب منه، وهناك سقط فاقد الوعى لما به من الألم، ولم يكد يفيق حتى وجد رأسه فى حجر شيخ وقور، يشع النور من وجهه ولحيته البيضاء، فنهض مسرعًا وحياه بأدب واحترام.. وأقبل الشيخ على الحكيم يسأله: هل تعرف من أنا. وأجاب الفتى : فليقل الشيخ.. إنى أنا أخوك الخضر جئت إليك بأمر من الله، وأحضرت معى كتابا إذا التزمت بما فيه من وصايا وتعليم، فستصل إلى ماتريد وتتحقق لك أغراضك بتوفيق الله. وأدخل الشيخ يده فى جيبه وأخرج الكتاب، ثم بين الشيخ للحكيم كيف يأخذ نفسه بتعاليم الكتاب، وكيف ينظم حياته مع الناس، ثم أجازه ودعا له [٢].

---

(١) ص ٢٤٤ Muslim saimt sana mystics Anbery

(٢) نقلا من مقدمة «منازل العباد من العبادة» للترمذى ص ١١، ومخطوط «الأدعية والطلسمات» وهو باللغة الفارسية وموجود بمكتبة أيا صوفيا تحت رقم ٨١٤، ومشكوك فى نسبته للترمذى ويبدو من عبارات المخطوط أن أحد المعاصرين للترمذى قد كتبه «الدكتور الجيوشى».

وقد نستفيد من النص الذى ورد عن فريد الدين العطار، والنص الذى جاء فى مخطوط «الأدعية والطلسمات» مدى ماكان يعتلج فى صدر الحكيم من الرغبة الملحة فى طلب العلم، حتى هيأ الله له من يعوضه مافاته من أمر السفر، ويفتح له بسبب ذلك من فيض الله، وخزائن علمه التى لاتنفد..

ولكن هل كف الترمذى الحكيم عن التفكير فى مثل هذه الرحلة؟ وهل قنع بما نال من المعرفة عن طريق ما كشف له؟ يبدو أن الحكيم يرقب الفرصة حتى سنحت له، وما أن تهيأت له حتى أزمع الخروج إلى مكة، يحج إلى بيت الله الحرام، وكانت سنه إذ ذاك سبعًا وعشرين سنة. ويبدو أن ذلك كان بعد وفاة أمه.. ولئن كانت الرحلة مقصدها الأول هو الحج، فلا بأس من أن تغتنم لتحصيل ما لم يمكن تحصيله من قبل، ففى طريقه إلى البيت المحرم، مر بالعراق ليأخذ عن علمائه، وهناك عرج على الكوفة والبصرة يأخذ عن شيوخها، وبقى بها إلى شهر رجب من نفس العام، ثم شد رحاله إلى مكة، وحل بها فى منتصف الشهر التالى، وظل مجاورا للبيت المحرم ملتزما لرحابه حتى حان وقت الحج، وكان يقضى أوقاته فى تلك الرحاب المقدسة فى العبادة والتضرع والدعاء إلى الله، وكان يكثر ويلح فى أوقات السحر من الليل عند باب الملتزم، ويبدو أنه داوم على ذلك خلال الأشهر الخمسة التى قضاها فى جوار البيت العتيق حتى ظفر بتوفيق الله له إلى تصحيح التوبة والخروج مما جل ودق، وأداء فريضة الحج، بعد هذا التمحيص الذى استمر خمسة أشهر متواصلة، انصهرت فيها نفسه، وأرهفت مشاعره، وانتعشت نوازع الخير فى داخله، واتصل قلبه بنور الله حتى أبصر طريقه [1].

وفى رسالة «بدو شأن أبى عبد الله» التى حققها الدكتور عثمان إسماعيل يحيى، يقول الحكيم عن هذه الرحلة: «حتى إذا قارب سنى سبعًا وعشرين أو نحوه، وقع علىّ حرص الخروج إلى بيت الله الحرام، فتهيأ إلىّ الخروج، فوقفت بالعراق طالبًا

(١) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة « المسائل المكنونة » ص ١١، ١٢.

للحديث، وخرجت إلى البصرة، فخرجت منها إلى مكة فى رجب، فقدمت مكة فى بقية شعبان، فرزقنى الله المقام بها إلى وقت الحج» [١]..

والمتأمل فى هذا النص الذى تحدث فيه الترمذى عن رحلته يلاحظ أن الحكيم ذكر أنه مر بالعراق فى طريقه إلى مكة، ويبدو أنه ذهب إلى بغداد ولم يقم طويلا. وبالتالى لم يأخذ عن علماء بغداد كثيراً، مما يجعل علماء بغداد شيوخًا له، ويبدو ذلك واضحًا من تتبع ألقاب شيوخه من المحدثين، فهم إما كوفيون أو بصريون، وإن كان لم ينص صراحة إلا على الذهاب إلى البصرة.

وقد كانت رحلته إلى مكة فتحًا جديداً فى طريق الوصول، فقد حصّل القسط الوافى من ألوان العلوم والمعارف الأخرى التى كانت سائدة فى عصره كالفقه، والحديث، والتفسير، وعلم الكلام، ورأى أنه بحاجة إلى القرآن الكريم الينبوع الذى لا ينضب له معين، فسأل الله سبحانه وتعالى عند «الملتزم» وهو يطوف حول البيت أن يرزقه حفظ كتابه، ويقول : «فرجعت وقد ألقى على حفظ القرآن فى طريقى، فأخذت صدراً منه فى الطريق، فلما وصلت إلى الوطن يسّر الله علىّ ذلك بمنه حتى فرغت منه، فأقامنى ذلك بالليل فكنت لا أمـل من قراءته، حتى أنه كان ليقيمنى ذلك إلى الصباح ووجدت حلاوته»[٢].

ولاشك أن إتقان الحكيم الترمذى للقرآن الكريم بعد اتقان علم الآثار وعلم الرأى «كان ذا أثر بعيد فى اتجاهاته الفكرية وآرائه التى بسطها فى كتبه المختلفة، مما يشعر بثقافته الواسعة، ومعرفته العميقة بالقرآن الكريم وأسراره، والسنة النبوية ومناهجها، وانعكس ذلك انعكاساً واضحاً على كل ماكتبه، بحيث لاتكاد تجد

---

(١) راجع الدكتور عثمان يحيى «بدو شأن أبى عبد الله» ص ١٤، ط بيروت.

(٢) المصدر السابق ص ١٥ الفقرة الثانية.

صفحة واحدة من كتبه إلا ويستشهد على مايورده فيها من آراء بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية التى كان محصوله منها وفيراً » [١].

وإذا كنا قد عرفنا أن والد الحكيم كان أحد علماء مدينة ترمذ ومحدثيها، وأن أمه كانت ذات معرفة بالحديث، وأن لذلك الأبوين الكريمين، مابدا واضحاً من اهتمام الحكيم بالعلم والمعرفة.. فإن حياته الأسرية يبدو أنها كانت حياة موفقة، والبيوت التى تمتلىء قلوب أفرادها بالمعرفة والقرآن الكريم والسنة النبوية، ترفرف عليها آيات السعادة والأمن، وقد تحدث الترمذى الحكيم عن زوجته حديثًا طيبًا، يشعر الباحث أنه كانت لها بعض التجارب الروحية، وكانت تشارك زوجها فى طريق الرياضة «والمعتقد أنها كانت على قدر لابأس به من الصفاء الروحى، والسعى الحثيث فى الوصول إلى الله، وكان الحكيم رب أسرة كبيرة، فقد ذكر فى بعض رسائله أنه بلغ من العمر خمسا وستين، وأن له خمسة من البنين» [٢]. وذكر لنا فريد العطار: «أن أبا عبد الله تزوج وأنجب أولاداً [٣]. وأنه كان عنده خادمة ترعى أطفاله، وتقوم على شئونهم، مما لايتهيأ إلا لأهل الغنى واليسار»[٤].

ومما يسترعى الانتباه فى حياة الحكيم الثقافية : أن الهجويرى صاحب كتاب «كشف المحجوب» يذكر «أن الحكيم قد قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب أبى حنيفة»[٥]. والباحث فى هذا الموضوع يجد أن المستشرق «نقولا هير» [٦] يستبعد ذلك نظراً إلى أن أبا حنيفة توفى سنة خمسين ومائة للهجرة ويوافق على هذا الاستبعاد الدكتور عبدالفتاح بركة ويقول «ونحن نوافقه على ذلك، وان كان ابن عربى يذكر فى فتوحاته المكية أن الترمذى كان حنفى المذهب فى الأصل، قبل أن

---

(١) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة «معرفة الأسرار» ص ١١.

(٢) الدكتور الجيوشى مقدمة «معرفة الأسرار» ص ١٥.

(٣) نقلا من كتاب «الرياضة وأدب النفس» المقدمة للدكتور آربرى وعلى حسن عبدالقادر ص ١٠.

(٤) الدكتور الجيوشى مقدمة «معرفة الأسرار» ص ١٥.

(٥) الهجويرى «كشف المحجوب» تحقيق الدكتورة اسعاد عبد الهادى جـ ١، ص٣٥٣،ط المجلس الأعلى بالقاهرة.

(٦) الدكتور نقولا هير مقدمة «بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص ٧، ط الحلبى ١٩٥٨.

يعرف الشرع من الشارع، لكن على فرض مارجحناه، من تاريخ ميلاد الترمذى، وأنه بدأ يدرس عام ثلاثة عشر ومائتين للهجرة، فإنه ينبغى أن يكون هذا الشيخ[١]. قد جاوز حينئذ الخامسة والسبعين حتى يتهيأ له أن يكون قد درس على يد أبى حنيفة، ويدرس للترمذى بعد ذلك، وهذا فى غاية البعد»[٢].

وإننى أرى أن البحث يهدى إلى أن ماذكره الهجويرى يتفق مع الحقيقة العلمية. لأن الهجويرى من علماء القرن الرابع والخامس الهجرى، وكان كثير الرحلات فى التقصى فجاب الأقطار، وكان من أتباع الحكيم الترمذى، فإذا ماقال فمقولته تحتاج منا إلى إمعان نظر، وتدقيق فى العبارة، وتحليل للكلمات، وقد يراد من العبارة أن الحكيم «قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب مذهب أبى حنيفة» ويؤيد هذا ويدعمه ماذكره ابن عربى[٣]. من أن الحكيم كان حنفى المذهب فى الأصل، وابن عربى حجة فيما يقول، لأنه اطلع على مؤلفات الحكيم وكان بها خبيراً.

ويقف بجانب كل هذا أن منطقة خراسان كانت فى الفقه على مذهب أبى حنيفة، حتى يكاد يعم رقعتها، ويبلغ أطرافها، وكان يلاحقه مذهب الشافعى، يحاول أن يدركه فى أدنى بلاد الإقليم، ويكاد يقطع عليه طريقه فى بعض الأطراف العليا الشمالية وان نجح فى أن يعيش معه جنبا إلى جنب فى كثير من بلاد الوسط، وان تكن هذه الحياة سلسلة من التعصب والمغالبة[٤]..

ولقد وصف المقدسى تفاصيل ذلك إذ يقول فى وصف «خراسان» : «والغلبة فى الأقليم لأصحاب أبى حنيفة»[٥]..

---

(١) يلاحظ أن الدكتور عبدالفتاح نقل كلمة «الشيخ» عن المستشرق نقولا هير. لكن الكلمة وردت فى الترجمة العربية الصحيحة «على واحد من خواص أبى حنيفة» الهجويرى.

(٢) الدكتور عبدالفتاح بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١، ص ٣٧.

(٣) ابن عربى «الفتوحات المكية» جـ ٢، ص ١١٤.

(٤) راجع الحسينى «المعرفة عند الحكيم» ص ٤٢.

(٥) راجع المقدسى «أحسن التقاسيم» ص ٣٢٣.

وإذا كان السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى يعد الحكيم بين علماء الشافعية، ويترجم له[1].. فإن ذلك راجع إلى مكانة الحكيم الفقهية، ويبدو أنه اهتم بفقه أبى حنيفة وفقه الشافعى، مما يسر له أن يكون من أهل الفتوى، وكانت الرسائل ترد إليه من شتى الأقاليم، تطلب الفتوى فى شتى مسائل الحقيقة والشريعة. فجاء السبكى واطلع على مكانة الحكيم الفقهية فعده من الشافعية.

ومؤلفات الترمذى وان كانت لا تظهره فى ثوب الفقيه، فإنها تقدم دليلا واضحًا على إلمامه بكل فروع الفقه ومسائله فى أكثر مذاهبه.. فالترمذى فى مؤلفاته يناقش كثيراً من مسائل الأصول، كما يناقش طائفة من الأشباه والنظائر، والحيل والمخارج، وبقية علوم الفقه، ثم هو يعرض بعد ذلك فى مؤلفاته لأكثر أبواب الفقه، فيتكلم فى الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم.. أما تاريخ الفقه وتاريخ رجاله وتاريخ مذاهبه، والخصائص الأساسية المميزة لكل مذهب وفقيه، فقد كانت واضحة فى عقله وثقافته[2]..

فالترمذى غزير المادة، واسع الثقافة، لم نشهد مثل ذلك عند غيره من مؤلفى عصره، لأن ثقافته تمتد إلى جميع فروع المعرفة فى عصره.. وثقافة الترمذى الأولى التى تطالعنا بين ثنايا مؤلفاته هى ثقافة المحدث الذى اتصل بجميع فروع الحديث. وإنا وان كنا لانراه حريصًا على أن ينصرف إلى جمع الحديث على عادة المحدثين فى عصره، بل يقنع من ذلك بالاختيار فحسب. إلا أننا نرى أنه فى اختياره للأحاديث تلك النزعة التى كانت تسيطر على هؤلاء الذين انصرفوا إلى جمع الصحاح أو السنن [3].

فقد كان حريصا كذلك على أن يقدم لنا طائفة من الأحاديث تضبط أعمال الفرد

---

(١) راجع السبكى «طبقات الشافعية» جـ ٢ ص ٢٤٥.

(٢) راجع الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٢٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٨.

والجماعة فى الاعتقاد، والعبادة، والمعاملات، كما تتصل بمكارم الأخلاق، والزهد[1].

وامتدت ثقافة الترمذى كذلك إلى التصوف، فهى تشهد بأنه اتصل بالصوفية وأخذ عنهم، وكتب لهم وعلى طريقتهم، وكان يقدم ما يضبط أعمال القلوب، وإخضاع أعمال الجوارح لها، ويعمل على تنمية الجانب الروحى من الفرد والمجتمع..

(٤) راجع الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى»، ص ٢٨ بتصرف.

obeikandl.com